مصائب الكتب والمكاتب في الشام

للاستاذ محمد كرد علي

وزير المعارف السورية ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

ما برحت المكاتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة في الاسلام وتنتقل الكتب من مصر الى الشام ومن الشام الى العراق ومن الحجاز الى الشام مثلاً ويُحفى بها العلماء والادباء ، ويتنافس في اقتنائها الملوك والامراء ، ويضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية ويفسد الزمان ويُرغب عن الفضائل ؛ ما برحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب واحرقوها سنة ٣٥١ ثم احرقوا حمص وغيرها من مدن الساحل . ثم وقع الحريق الاعظم الذي اصيب به الجامع الاموي بدمشق سنة ٤٦١ ودثرت فيه محاسنهُ وما كان فيه من الاعمال النفيسة والكتب والمصاحف من جملتها . وربما حرق فيه المصحف الثماني القديم . ومن اهم النكبات التي أُصيبت بها الكتب في الشام نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون واحراق صنجيل احد امرائهم كتب دار العلم فيها . واخذ الصليبيون بعض ما وصلت ايديهم اليه من دفترها وكتب الخاصة في بيوتهم . واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار او دار حكمهم في طرابلس . وعلى اصح الروايات انها ما كانت تقل عن مائة الف مجلد واوصلها بعضهم الى الف الف وبعضهم الى اكثر ، وقفها امين الدولة ابو طالب الحسن بن عمار وجاء بعدهُ الامير علي بن محمد ابن عمار الذي جدد دار العلم سنة ٤٧٢ ثم ظفر الملك عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات في زمن آل عمار جميعها دار علم ، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخاً ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية فضلاً عما يشترى لها من الكتب المنتخبة من البلاد . وابن الفرات هو ممن يقول بان عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عند ما احرقها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ . والغالب انهُ كان في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم وقفت قبل بني عمار واراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الالف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس كلها

ولا ينبغي ان يذهب عن الخاطر ان ما كانوا يسمونهُ جزءاً او مجلداً او مجلدة لا

يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا والكُراسة قد لا تكون اكثر من ثماني صحائف بمعنى ان الف المجلدة او المجلد لا تبلغ في مصطلحنا اكثر من خمسين كتاباً او ستين او سبعين كتاباً ،فكان المجلد في تلك العصور قليل الاوراق ، لان الورق او الرقّ غليظ فاذا جعل كل مجلد مائتين او ثلاثمائة او اربعمائة او خمسمائة ورقة صعب تناولهُ وحملهُ ونقلهُ ولا يصح ما قالهُ ابن الفرات من انهُ كان في دار العلم في طرابلس ثلاثة آلاف الف يوم نكبتها الا على هذه الصورة اي ان كتبها كانت بين المائتين والثلاثمائة الف ومنها اجزاء صغيرة ورسائل وقد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطوره سطور مقالة من مقالاتنا او املاءة من املائنا او محاضرة او مسامرة من محاضراتنا ومسامراتنا اليوم

فالمصيبة الاولى بل العظمى التي اصابت الكتب في الشام كانت على عهد الصليبيين والمصيبة الثانية ما حملهُ منها التتار في نوبة هولاكو وما أحرق في مدارس دمشق وجوامعها من امهاتها. فقد ذكر المؤرخون انهُ امتلأت خزانة الكتب بمراغة مما نهبهُ هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما . وقدروا ما حملهُ باربعمائة الف مجلد ومنها ما حرق في فتنة غازان سنة ٦٩٩ وفي واقعة التيمور لنك سنة ٨٠٣ فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة ايام فذهب في هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة العادلية وغيرهما من المدارس

ومن الخزائن التي بلغنا خبر دمارها في الحروب الصليبية خزانة أسامة بن منقذ احد اصحاب قلعة شيزر فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ارسل بها بعد ان اخذ عهداً من الصليبيين من دمياط الى عكا في بطسة فنهبت ونهب معها ثلاثون الف دينار قال ان ذهابها ظل حزازة في قلبهِ ما عاش . ومن مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة ٦٨٧ ذهب فيهِ من الكتب ما لا يحصى

ومنذ دخل الصليبيون بلاد الشام اخذوا على ما يظهر يقتنون الكتب العربية ولكن على صورة ضيقة لان العلم بها كان معدوماً عندهم ، يبتاعونها على انها عاديات قديمة غريبة الوضع والشكل . ولما ماتت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في ايطاليا اراد البابوات اقتناء الكتب العربية فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا الى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظاً فيها من كتب الدين والعلم ما كان مكتوباً بالعربية والسريانية. وحمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨ م) كتباً في ثلاثة مراكب الى رومية ملأ ما بالمخطوطات العربية وغيرها فغرق منها مركبان ولا يقدَّر ما فيها بأقل من عشرات الالوف من المجلدات

ومن المصائب التي أُصيبت بها الكتب ان بعض دول أوربا ومنها فرنسا وحكومات

جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا اخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والاساقفة والمبشرين من رجال الدين ، وكان القوم ولاسيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضلوا درهماً على النفس كتاب خانوا الامانة واستحلوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنهُ ملكهم . حدثني الثقة ان احد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض ارباب العمائم في دمشق ، ويختلف الى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع ، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الاغلب ، واكثرها في غير علوم الفقه والحديث ، من قنصل بروسيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ابيض ، وبقي هذا سنين يبتاع الاسفار المخطوطة من أطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده فأخذتها حكومتهُ منهُ وكافأتهُ عليها . والغالب ان معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الامة في برلين هي من بلاد الشام . وفهرس هذه الخزانة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق . وتكون فهارس الكتب العربية في خزائن الغرب اليوم خزانة برأسها . وان بعيداً يحسن القيام على هذا التراث الوافر لاحرى به من قريب يسدده جزافاً . وان اعاً عرفنا اكثر مما عرفنا انفسنا حتى قال احد علمائهم ان الغرب وضعوا من المصنفات مالا يستطيع احدنا ان يقرأه طول عمره ، لجديرون بارث الشرق في ماديَّاتهِ ومعنوياتهِ كما قلنا من فصل في مجلة المقتطف منذ اربع وعشرين سنة . ثم ان كتباً تترك للارضة تنبث فيها ، والعفن يعبث بجمال جسمها ورسمها ، وتحرم النور ويعفي اثرها الغبار والاوساخ . ويحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منها ، او تُفَضَّل عليها دريهمات معدودة حرية بان تكون في ملك من يستفيد منها ويفيد!

ومن الخزائن المشهورة التي بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الاموي بدمشق وكانت مملوءة برقوق نفيسة ففتحت سنة ١٣١٧ هـ بامر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني الالماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الاشعار المقدسة بالارامية الفلسطينية وكتابات دينية وأديات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني ومقاطيع شعرية لهوميروس ، وكراريس واوراق بالقبطية والكرجية والارمنية في موضوعات دينية الا قليلاً ، وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين وصلوات وصكوك للبيع

والاوقاف وعهود زواج وبينها مقاطيع لاتينية وافرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها الى ايام الصليبيين ونسخ اخيل برقوق . فأهدى السلطان معظمها لعامل المايا ووزع قسماً منها على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق واستُخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في هذه المدينة واهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن احمد سنة ٢٩٨ وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها . ورأى شيخنا الامام طاهر الجزائري في تلك الفترة جزءاً مكتوباً عليه انهُ حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى ابنائه الائمة سنة نيف وسبعين واربمائة

وكانت في دير صيدنايا من جبل قلمون خزانة كتب حافلة بالمخطوطات النادرة ولاسيما السريانية فحاذر وكلاء الدير من كثرتها (المشرق ٢ ص ٥٨٨) ان تكون حجة يد السريان يتقوون بها على اثبات حقوقهم في الدير فأجمع رأيهم على اخراجها واتلافها تخلصاً منها فجمعوها ومعظمها من النفائس المخطوطة على رق وبدأوا يحرقونها وقوداً للفرن خبزوا عليها خبزتين وكان هذا من نحو تسعين سنة . وهو عمل مثل الجهل المطبق والتعصب الممقوت . وكم وقع من حوادث افرادية من مثل هذه فضاعت فيها الكتب ولم تبلغنا تفاصيلها . ومما أعان على تشتت الكتب ان بعض من أولعوا في العهد العثماني بتسنم ذرى المناصب والقضاء ، وكان لهم مشاكل وقضايا يريدون حلها في المراجع العليا او لمجرد التقرب والتظرف كانوا يُمنون في مهاداة من يتوقعون الخير منهم بالكتب وبذلك رحلت الى الاستانة وغيرها أحمال من المخطوطات على هذا الوجه ايضاً فدت هذه الهدايا في جملة مصائب المكاتب

***

هذا وخير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح اليوم ان يعمد كل من حوت وقوفهم وقناطرهم كتباً الى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لانها اقل عُرضة للحريق والتلف ولكوارث ووارث ، وان يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة ، وتجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع اليها العلماء والباحثون ، وتسهّل عليهم فتكون منهم على طرف الثمام ، وبذلك يزيد النفع منها ويحيا بالطبع والنشر مالم تساعده الحال ان يعرف حتى الآن ، وبذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع وفائدة الحفظ ، كما فعل المصريون وحفظوا بقايا كتبهم في داري الكتب المصرية والازهر والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة وخزانة المجلس البلدي في الاسكندرية والجامع الاحمدي في طنطا . والله يرث الارض ومن عليها